البحث الأول

تحديد المفاهيم

العقيدة

توصل الباحثون فى علم الأديان إلى أن لفظ " عقيدة " يطلق ويراد به – فى غالب الأحيان – الدلالة على العلاقة التى تربط العابد بمعبوده ، أى أن كلمة "عقيدة" تُستخدَم للدلالة على التصديق بوجود معبود، تُحدِّده مبادئ كل دين على حدة. كما تُطلَق على الممارسات والطرق التى يؤديها العابد – وإن اختلفت أشكالها وصورها فى كل دين عن الآخر – راجياً بها تطهير نفسه من الدنايا التى تُغضِب المعبود ، ومُؤَمِّلاً بذلك فى الحصول على رضائه ، كى ينال ثوابه ، ويتجنب عقابه .

ويدخل فى إطار مفهوم العقيدة – بالإضافة إلى ماسبق – أساليب المعرفة ومناهج العمل التى يتصورها العابد أوامر ونواهٍ صادرة له من المعبود ، سواء كان ذلك فى مجال الأخـــلاق ، أو كانت تلك الأوامر والنواهى داخل الإطار المنظم للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ويرى " شارل جنيبيرت " أن كلمة " عقيدة " تعبر عن تعليم موضوع ، أى عن حكم مقرر بواسطة سلطة لها صفة الأهلية ، بحيث يؤدى هذا الحكم إلى اتخاذ قرار ما ؛ فلقد كانت قرارات مجلس الشيوخ فى أثناء الإمبراطورية الرومانية تسمى بالعقائد (Dogmas) ولذلك نجد لوقا الإنجيلى عندما أراد أن يخبرنا بأن القيصر أغسطس قرر عمل إحصاء عام (إصحاح : ٢،عدد ١)كتب يقول : " صدرت عقيدة من القيصر أغسطس " يريد : صدر قرار من السلطة العليا .

وعندما اتهم يهود تسالونيكى القديس بولس ومستمعيه بعدم إطاعة الأوامر القيصرية لم يستعملوا إلا كلمة " عقيدة "[٥] .

ولقد كان من الطبيعى أن يعنى اليهود الذين اكتسبوا صفة الهيللينية ، أعنى الذين يتحدثون اليونانية عادة ، بحكم إقامتهم فى بلاد اليونان ، كان طبيعياً أن يعنوا بهذه الكلمة ، التى تحمل معنى السلطة ، أحكام شريعة موسى التى لايمكن مخالفتها . فقد أعلن القديس بولس فى رسالته إلى أهل أفَسُس[٦] : أن المسيح قد

---

[٥] أعمال الرسل ١٧ : ٧

[٦] ٢ : ١٥

حطم السياج الذى يقسم الناس إلى شعبين : يهود وأميين ، وأنه بجسده ، أى بموته ، أراد أن يبطل قانون الأحكام "التى هى العقائد " ، أى الأوامر والأحكام المفروضة والواجب اتباعها. كذلك عندما بدأ المسيحيون وضع أسس شريعة " العهد الجديد " فى مقابلة البناء المهجور " للعهد القديم " استخدموا بدورهم هذا الاصطلاح الذى يعبر تعبيراً دقيقاً عن كل ما أرادوا أن تعبر عنه خطب السيد المسيح وخطب حوارييه . ويخبرنا صاحب " أعمال الرسل " بأن القديس بولس وأصحابه كانوا يأمرون أتباعهم باتباع العقائد التى وضعها الحواريون وقدماء بيت المقـــدس حيثما ذهبوا ..... [٧]

ومن الواضح أنه إذا كانت كلمة " عقيدة " تعنى – فى الفقرات التى سردناها –: الحكم ، باعتبار صدوره عن سلطة عليا ، فإننا لم نخرج دائرة الواقع ، فالأحكام التى تعنيها هى إما أحكام مادية ، أو أحكام معنوية أخلاقية. فهى مادية فى الشريعة اليهودية ، التى لجأت ، عندما هرمت وشاخت ، إلى مضاعفة الطقوس والاحتياطات الواجب اتخاذها ، ضماناً لعدم اتصاف اليهودى بصفة النجاسة ، وهى معنوية أخلاقية عندما يكون موضوعها شريعة العهد الجديد التى لاتعدو أن تكون قاعدة للحياة العملية ، وأملاً فى الخلاص ، أى أملاً فى الحصول على مكان فى مملكة السماوات..... وعلى هذا النحو تبدو لنا عقائد شريعة العهدين : القديم والجديد – حتى فى أدق تفاصيلهما – متخذةً طابع أوامر تخولها سلطة إلهية ، ومفروضة فرضاً إلهياً بلا شك ، لكنها أساساً ذات طابع عملى ..... إن العقيدة – أى عقيدة – هى حقيقة معصومة ، وحكم لا يمكن نقضه ، وهى من حيث جوهرها موحى بها ، أوحاها الله مباشرة (إلى أنبيائه) .... "[8]

على أن هذه الكلمة كانت تعنى فى المدارس الفلسفية الوثنية معنى أكثر تعقيداً ؛ ففى هذه المدارس كانت كلمة " عقيدة " تطلق على الصيغ التى كانت تكاد تكون معصومة ، والتى كانت تتضمن المعارف الأساسية لكل نظام فلسفى ، فـــ " كليمانس Clement " الإسكندرى ، هذا العالم المسيحى ، الذى عاش فى بداية القرن الثالث ، وفى وسط مشبع بالفلسفة اليونانية ، يعرف تمام المعرفة هذه "العقائد الفلسفية" ، التى هى عبارة عن المقدمات والنتائج لكل نظام من نظم الجدل الهللينية الكبرى . فكثيراً ماكان يقال فيما حول بداية العصر المسيحى : "عقائد فيثاغورس Phythagore " ، أو "عقائد أفلاطون Platon " ، عندما يراد الحديث عن مذهب أحدهما الخاص . لم تعد كلمة " عقيدة " تعنى الأحكام العملية فقط ، فهذه الأحكام العملية قد أصبحت لاتمثل إلا مكاناً ثانوياً لدى مفكرى اليونان ، لايشذ عن ذلك فيثاغورس نفسه. فعندما

---

[7]) ١٦ : ٤

[8]) جنيبيرت :تطور العقائد ، ترجمة : د. محمد حسانين

كانت تذكر كلمة العقائد فى هذه المدارس الفلسفية الوثنية ، كان يراد منها مؤكدات ميتافيزيقية ، لاتعنى فقط عند من يعتنقونها الإيمان ، بمعنى الثقة ، بل تعنى أيضا ، وعلى الأخص : الإيمان ، بمعنى الاعتقاد .

ولنكن أكثر وضوحاً : إن الفلاسفة كانوا يريدون أن يكون الإيمان الذى يبشرون به بين تلاميذهم ، ويريدون منهم أن يعتنقوه ، هو : الإيمان المتعقل والمبرهن عليه عقلياً . أريد أن أقول : الإيمان الذى أثبته العقل وأكده . ولقد كتب " كليمانس Clement " الإسكندرى ، وهو رغم كونه مسيحياً ، معجب أيضاً بالمقدمات الفلسفية ، كتب فى تحديد معنى العقيدة يقول : "إنها نوع من التحصيل العقلى " ، أى أنها مفهوم تدركه النفس بواسطة العقل ، أو على الأصح ، بواسطة الاستدلال العقلى .

فإذا التزم العابد بأوامر المعبود ونواهيه فى كل المجالات وصل إلى مرتبة دينية عليا ، حيث يشعر بالارتياح والاطمئنان ، ويستقر فى وجدانه أنه أصبح محصناً ضد كل شرور الدنيا ، آمناً من عقاب المعبود فى الآخرة ، وهذا منتهى مايبتغيه أى إنسان – طبقاً لمفهوم المتدين – فى الدنيا والآخرة .

ونستخلص من هذا التصور أن العقيدة هى :

- علاقة المعبود بالعابد.
- الانفعال الداخلى ، أو التأثر القلبى الوجدانى بالألوهية .
- الالتزام بطاعة المعبود فى كل أوامره ونواهيه. [9]

ومن هنا يكون الإعلان عن حالة المؤمن الداخلية ، نتيجة لاستيلاء الإشعاع الإلهى على مشاعره وأحاسيسه ، بحيث يصبح من المؤكد أن العقيدة ليست أمراً اختيارياً ، بل هى نتيجة لظروف وملابسات

---

[9] هذه الكلمة كانت تعنى فى المدارس الفلسفية الوثنية معنى أكثر تعقيداً ، ففى هذه المدارس كانت كلمة " عقيدة " تطلق على الصيغ التى كانت تكاد تكون معصومة ، والتى كانت تتضمن المعارف الأساسية لكل نظام فلسفى ، فكليمانس " clement " الإسكندرى ، هذا العالم المسيحى ، الذى عاش فى بداية القرن الثالث ، وفى وسط مشبع بالفلسفة اليونانية ، يعرف تمام المعرفة هذه " العقائد الفلسفية " التى هى عبارة عن المقدمات والنتائج لكل نظام من نظم الجدل الهللينية الكبرى ، فكثيراً ما كان يقال فيما حول بداية العصر المسيحى : " عقائد فيثاغورس Phythore " أو " عقائد أفلاطون Platon " عندما يراد الحديث عن مذهب أحدهما الخاص . لم تعد كلمة " عقيدة " تعنى الأحكام العملية فقط ؛ فهذه الأحكام العملية قد أصبحت لاتمثل إلا مكاناً ثانوياً لدى مفكرى اليونان ، لايشذ عن ذلك فيثاغورس نفسه . فعندما كانت تذكر كلمة العقائد فى هذه المدارس الفلسفية الوثنية، كان يراد منها مؤكدات ميتافيزيقية ، لاتعنى فقط عند من يعتنقونها : الإيمان ، بمعنى الثقة ، بل تعنى أيضا ، وعلى الأخص : الإيمان ، بمعنى الاعتقاد .

ولنكن أكثر وضوحا : إن الفلاسفة كانوا يريدون أن يكون الإيمان الذى يبشرون به بين تلاميذهم ، ويريدون منهم أن يعتنقوه: هو الإيمان المتعقل ، والمبرهن عقليا . أريد أن أقول : الإيمان الذى أثبته العقل وأكده " (شارل جنيبيوت : تطور العقيدة صـ ٢٩ ترجمة : محمد محمد حسانين)

أثرت على المشاعر ، واستولت على الوجدان حتى أسلم المرء نفسه للنداء الإلهى ، فآمن به ، ونفذ تعاليمه دون احتجاج أو اعتراض .

وبناء على هذا التفسير للعقيدة ، فإنها تحتل مكاناً سامياً فى مجال الشعور الإنسانى ، غير أنه يتطرق إلى الذهن تساؤل هام ، ألا وهو:

هل يمكن فهم العقيدة على أنها موقف دينى ، بعيداً عن الحالات النفسية التى تعترى الإنسان من آن لآخر ؟

إذ يبدو أن شعور الإنسان المتدين ، وموقفه من تعاليم العقيدة – أياً كانت هذه العقيدة ليست انفعالا ذاتيا خالصا ، فالعقيدة تغوص فى الأعماق من ناحية موضوعها ، فهى آتية من أعماق النفس الإنسانية ، وتتحدد معالمها فى اللاشعور ، ثم تبرز إلى الوجود بصور شتى ، ومعالم متعددة ؛ فلو صارت العقيدة فى صورتها المادية المرئية نابعة من هيكلها الخارجى ، لأصبح من المستحيل وجود تعليل لبعض الظواهر الدينية ، أو تفسير مقنع لنصوص وطقوس مقدسة ، فعلى سبيل المثال:

هل يمكن للمرء أن يفسر دوافع " البانتو " إلى تعظيم الموت وتقديسه ؟

وهل نستطيع وصف تقديس " بهاكتى " فى عقيدة الفشنو ؟

وهل يمكن أن يفسر الإيمان عند أهل السنة فى الإسلام بالعقيدة ؟

هل يطلق وصف عقيدة على تعظيم الاسم فى " جودو شنشو " ؟

ويمكن أن يطرح نوع آخر من الأسئلة :

هل يجوز أن تسمى حالة انغماس الإنسان فى الخيال الذى يقوده إلى الألوهية عقيدة ؟

هل تصبح مناجاة المسيح لربه فى بعض التعبيرات اللغوية:

"سيدى وإلهى " عقيدة ؟

ينبنى هذا التعمق فى تفسير العقيدة على الملاحظات التالية:

أولا : لا يمكن أن يغفل المرء عن أن الاستخدام الصحيح لمفهوم " العقيدة " يبدو فى مقارنة الأديان حالة نفسية ، تتخذ صورة رسمية ، وتلك هى المضمون المادى لكل دين على حدة.

ثانيا : أن من الخطأ البين أن يقتصر مفهوم " العقيدة " على نوعية معينة من الأديان ، أو تُحصَر فى الأديان السماوية ، لأن ذلك يؤدى إلى إغفال عناصر متشابهة فى جميع الأديان ، بصرف النظر عن قلة هذه العناصر أو كثرتها ، إذ من الممكن – بل من المحتم – أن يؤدى هذا الخطأ إلى :

- إغفال التشابه النسبى فى اختلاف موضوع العقيدة.
- أن يصبح التحوير أو التأويل المتعسف وسيلة لإظهار أنواع عدة من الاختلافات التى تؤثر على وحدة الأديان فى الهدف.

إذ الوحدة تبدو ممكنة عندما يسيطر التسامح على أبناء العقائد المختلفة ، فيتحاورون ، ويتناقشون بموضوعية. ومن الممكن أن يبرز هذا الموقف فى ثلاثة جوانب :

١. العقيدة ، وإن كانت علاقة بين المعبود والعابد ، إلا أنها ليست منحصرة فى الشعور الداخلى فحسب ، بل تتجاوزه إلى الظهور بأشكال وصيغ مختلفة ، فهى إحساس شخصى ، يظهر فى صورة ظواهر خارجية ، أو هى تصورات روحانية لايستدل عليها إلا بواسطة سلوكيات تدل عليها ، فالجانب الروحى لايُدرَك بدون عقيدة ، إذ كل الطقـــوس العملية تقوم أساساً على اقتناع مطلق بالوجود ، والقوى الكامنة فيه ، سواء كانت جزءاً منه ، أو خارج ماهيته ، غير أن العنصر الأساسى لها أنها مؤثرة فيه تأثير الوجود من العدم ، أو تصريفه وتدبيره. وبناء عليه لاتكون العقيدة مبدأ احتمالياً فى عالم الظواهر ، بل هى علاقة ثابتة تربط بين عالم روحانى غير مرئى داخل الإنسان ، وبين ظواهر : تعلق بها فى سلوكه ، وخضع لأوامرها فى كل مايقوم به من طقوس يعتقد أنها تقوده فى حياته إلى ما ينفعه فى الدنيا ، ويثيبه بالجزاء الأوفى فيما وراء هذه الحياة. ومن هنا تكون هذه العلاقة معتمدة أساساً على إحساس داخلى غير قابل للظهور . [10]

---

[10]) لاتأخذ عقيدة ما صفتها العقائدية إلا عندما توضع فى صيغة ، لكنه يُقْضى عليها بالجمود الأرثوذكسى منذ اليوم الذى تضع لها فيه السلطة الدينية هذه الصيغة ، وبعبارة أخرى ، منذ اليوم الذى يفرض عليها المعترف لها بالاختصاص من المؤمنين صيغة لايحق لها بعد ذلك أن تتجاوزها؛ إذ المفروض أن تلك الصيغة تشتمل ، فى صورة إنسانية كاملة ، على الحقيقة الكاملة التى لايمكن أن يصل إليها البشر . غير أنه إذا كانت المعتقدات تستمد غذاءها من المشاعر الدينية حقيقة ، وإذا كانت لاتستطيع أن تعيش إذا ابتعدت عنها ، فإنه يصبح من الواضح أن تثبيتها فى صيغة من صيغ السلطة يعنى حكماً عليها بالإعدام ، ينفذ عاجلاً أم آجلاً . [جنيبرت ٣١٠]

يضاف إلى هذا أنه من الممكن أن يحدث تعارض بين هذا الإحساس الداخلى وبشعور عقلانى – وهو فى الغالب الأعم داخلى أيضاً – لايعترف بالعقيدة ، بل قد حدث ذلك – وما زال – على امتداد التاريخ الإنسانى.

وإلى جانب التفكير الدينى الخالص ، الذى يكفى وحده لتعديل العقائد وهدمها ، يوجد التفكير الفلسفى ، فالفكر الإنسانى ، فى تطبيقاته العليا ، يقوم بدور كبير فى هدم بعض المفاهيم العقائدية . ألسنا نعرف ، إذا اقتصرنا على الديانتين : اليهودية والمسيحية ، أن تأثير الفلسفة الأفلاطونية والرواقية قد تمخض أولاً عن الفيلونية ، ثم بعد ذلك عن مذهب الإسكندرية ؛ فوضع أساتذة الفيلونية لقضايا الإيمان اليهودى ، ووضع أساتذة مدرسة الإسكندرية لقضايا الإيمان المسيحى شروحاً جديدة ثرية ، فاقت الشروح السابقة التى اعتبرت المأثورات أنها مقدسة ؟ وأن المذهب الأرسطاليسى جعل الناس يرون مؤكدات المسيحية بعين غير تلك التى كانوا يرونها بها حتى ظهوره ؟ "وأن فلسفة ديكارت مهدت لظهور العقلانية المضادة للمسيحية فى القرن الثامن عشر ، كما مهدت فلسفة "كانت" و "هيجل" لظهور المذهب النقدى فى القرن التاسع عشر؟ وأنه فى كل هذه المراحل ظهرت طرائق جديدة لدراسة العقائد ؟ إن الفلسفة لايمكن أن تعدل إلا وجهة نظر المثقفين ، هذا واضح، لكنها تعدلها بالضرورة ؛ لأن القانون الذى يحكم العقل هو الجمع بين تصوراته فى نظام متسق ومحدد .

على أن النتائج التى يتوصل إليها الفكر الفلسفى تتسرب شيئًا فشيئًا من صفوة المثقفين لتهبط إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع ، إنها تفرض نفسها كقواعد أساسية للفكر العادى ، ولا يعود أحد يناقشها ، ثم تقوم بطريقة غير مرئية ، لكنها لاتقهر ، بتغيير العقلية التى جعلت بعض العقائد مقبولة. لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية على حق ، عندما أهملت " كانت " ، ولم تقدره حق قدره ، لأن الأثر العميق والمستمر لهذا المفكر فعل فعله ، كاعتراض على العقائد الأرثوذكسية ، حتى دون أن يريد ذلك هو نفسه صراحة ".[11]

لكن العقيدة المعتمدة على الإحساس الداخلى أزاحت من أمامها كل الأفكار العقلانية المعارضة ، وقضت على كل اتجاه فكرى أنكر تعاليمها وطقوسها ومبادئها. ومن الملفت للنظر أن إطلاق وصف الكفر والزندقة على الأفكار المعارضة للعقيدة ، أُطلقت أيضاً على العقيدة نفسها فى بداية ظهورها فى المجتمع. فاستخدام المصطلحات الدالة على الضلال والكفر والزندقة والارتداد ، وما شابهها نسبى ؛ فبينما يُطلقُه

---

[11]) جنيبرت ٣١٤ – ٣١٥

المجتمع على صاحب الرسالة – ومن تبعه – فى بداية دعوته ، يستخدمه المؤمنون بهذه الرسالة فى اتهام من يخالفهم ويعارضهم.

٢. تشترك كل الأديان فى أن العقيدة تنبع من شعور داخلى وإحساس وجدانى ؛ إذ أن الإحساس الباطنى لدى المؤمنين يكاد يكون واحداً ، على الرغم من اختلاف عقائدهم، وتباين تصوراتهم إزاء المعبود ، وتعدد أشكال العبادات ، وتنوع المبادئ والتشريعات .كذلك تتوحد الأديان فى مجال الموازنة بين ماتغرسه العقيدة فى نفوس المؤمنين من ربط الثواب والعقاب بمدى الالتزام بمبادئها وتعاليمها ، سواء كانت أوامر أونواهى، إذ سيطرة الخوف الميتافيزيقى على العابد موجود فى كل الأديان ، وهو العامل الرئيسى فى احتواء العقيدة لمشاعر وأحاسيس المؤمن – أياً كان مضمون العقيدة وتعاليمها – ، توجهه إلى سلوك معين ، وتدفعه إلى الدفاع عنها بكل الوسائل ، وتجمع المؤمنين بها حـــول مبادئ معينة فى مواجهة المخالفين لهم .

٣. نصوص مقدسة، وتفسيرات أو تأويلات العقل الإنسانى لهذه النصوص، أو بمعنى آخر: نصوص مقدسة ، وفكر إنسانى نشأ وترعرع حول هذه النصوص ، يقود المجتمع إلى اتجاه معين فى ظل مناخ ثقافى ، مرتبط بالزمان والمكان ، ومتعلق بأحداث داخل هذين الإطارين : الزمانى والمكانى.

وفى مسيرة هذا الفكر الإنسانى – الدينى ، وتطوره – نشأت ظواهر فكرية ، اكتسبت الصفة الدينية باعتبارها خرجت من عباءة المشتغلين بالنصوص الدينية ، أو ظهرت فى صورة مراسم كهنوتية، أو قرارات واجبة التنفيذ ، ثم صارت جزءاً لايتجزأ من الدين ، بل كثير من هذه المراسم والقرارات تعمقت فى العقل الدينى ، وتمكنت منه ، حتى أصبحت فى مرتبة أعلى من مرتبة النصوص المنسوبة إلى مؤسس الدين نفسه ، أو إلى النبى الْمُوحَى إليه بهذه النصوص. ويبدو ذلك واضحاً فى قرارات المجامع الكنسية ، وإصدارات المؤتمرات البوذية ، وآراء بعض المذاهب الإسلامية .

فالعقيدة فى هذا الجانب أقوال وآراء ، واتجاهات ، كونت هيكلاً يتعدد بتعدد الشعوب والأقوام ، ويتنوع بتنوع الآراء والاتجاهات الفكرية بين الأديان المختلفة فى مصادرها ومنابعها ، وحتى فى داخل الدين الواحد تتشعب عناصر العقيدة إلى مذاهب وفرق شتى ، تتنازع وتتشاحن فى كثير من المسائل الدينية ، لدرجة تصل إلى حد الانقسام والتميز ، بحيث يصير كل واحد مذهباً قائماً بذاته لايربطه بالآخر شيئ ، اللهم إلا صلات واهية تجمعهم بالأصل البعيد ، ألا وهو منشأ الدين ، مثال ذلك : الكاثوليكية ، والبروتستانتية

(الإنجيلية) ، والأرثوذكسية ، وغيرها من المذاهب الأقل عدداً وانتشاراً فى الدين المسيحى ، وكذلك العيسوية ، والعنانية ، والسامرية فى الدين اليهودى ، والشيعة ، وأهل السنة فى الإسلام ... . إلخ.

وليس الأمر قاصراً فى هذا على الأديان السماوية ، بل يشمل كل أديان الأرض ؛ فقد تفرقت كلها إلى شيع ومذاهب مختلفة ، يهاجم بعضها بعضاً، ويكيد أتباع كل مذهب للآخرين ، لدرجة الوصول إلى مقارعة السلاح .

ولا يحتاج الأمر إلى التأكيد على أن النزاعات الدينية احتلت معظم صفحات التاريخ فى المجتمعات الإنسانية ، بل إنها لازالت تسيطر على كثير من النزاعات المحتدمة الآن على الساحة الدولية ، فالنزاع بين العرب واليهود فى الشرق الأوسط قائم على أساس دينى ، وبين البروتستانت والكاثوليك فى أيرلندا الشمالية أشعلته مشاعر الاختلاف فى الدين ، وبين المسلمين والصرب فى منطقة البلقان ، وبين شمال السودان وجنوبه تؤججه الاختلافات الدينية ، بل إن الاختلاف بين المسلمين أنفسهم كان سبباً فى اندلاع الصراع المسلح فى المجتمعات الإسلامية ، بين المسلم وأخيه المسلم : فى الصومال ، وأفغانستان ، وصحراء المغرب العربى ، وينطوى تحته أيضاً الصراع بين فصائل الجماعات الإسلامية وبين السلطة السياسية : فى الجزائر ، وأمريكا ، واليابان ، والسعودية ، ومصر .... و..... و..... إلخ .

إن العقيدة ، أى عقيدة ، هى فى وقت ما حقيقة معصومة ، وحكم لايمكن نقضه ، وهى من حيث جوهرها موحى بها ، أوحاها الله مباشرة ، كما حدث فوق جبل سيناء ، على سبيل المثال ، حيث تكلم يهوه (الله) إلى موسى ، أو أوحى بها عن طريق المسيح خلال تعاليمه الأرضية التى ترويها لنا الأناجيل ، (أو أوحيت لمن اصطفاه الله رسولاً إلى الناس بواسطة جبريل) ، أو التى أوحيت إلينا بطريق غير مباشر بواسطة الإلهام لمن لديهم الأهلية والاستعداد لتلقيه ، أى لرؤساء الكهنوت الذين مازال يحركهم روح الحواريين .

إذن فلا يمكن الاعتراف بالعقيدة إلا بعد أن تكون قد حددت وصيغت فى عبارة حاصة ، وأعلنت على الملأ بواسطة السلطة المختصة – أى بواسطة المجامع المقدسة فى الزمن الغابر ، وبواسطة البابا حالياً فيما يتعلق بالكنيسة الكاثوليكية – بإلهام من روح القدس . وبعد أن تقول السلطة كلمتها ، فإن العقيدة التى يفترض أنها لاتنطق بغير الحقيقة تصبح بالنسبة لأتباع الكنيسة موضوع إيمان ثابت ومعصوم ، لأن الله لايخطئ ولا يوقع أحداً فى الخطأ. ثم تصبح هذه العقيدة – من الناحية النظرية على الأقل – وحى، وسلطة، وعصمة. وتلك إذن هى الكلمات الثلاث التى تحدد العقيدة ، والتى يمكن القول بأنها تعبر عن جوانبها الأساسية .

أما العقل الأساسى الذى لابد منه لعقائد اليونان الفلسفية ، فلم يعد له هنا من دور ، اللهم إلا قبول القضايا العقائدية وتبريرها إن أراد .

وإذا نُظِر إلى العقيدة من خارجها ، واعتبرت من وجهة نظر اللادينيين ، فإنها فى هذه الحالة لاتزيد عن أن تكون قراراً أو مرسوماً قنصلياً أو بابوياً . غير أن المؤمن يرى الأمر على خلاف ذلك ، فعنده أن سلطة البابا التى يخيل للبعض أنها هى التى أوجدت العقيدة لما يبدو من اتخاذها مظهراً آدمياً ، هى سلطة لايمكن مهاجمتها ، لأنها لاتتصرف من تلقاء نفسها ، ولا بطريقة تعسفية ، وهو يرى أن قرارات البابا ليس فيها شيئ شخصى ، فسلطته ليست إلا سلطة ضرورية ، لكنها حيادية بين المؤمنين وربهم . فالبابا رجل اختير بواسطة أمثاله من البشر ، وهو أثناء حياته العادية عرضة للزلل والخطأ اللذين يتعرض لهما كل عقل بشرى ، لكنه يشعر بارتفاعه فوق الضعف البشرى الجبلّى حالما يتجه إلى روح القدس طالباً منه العون والإرشاد . ومن هنا كان جوهر العقيدة بالنسبة للمسيحى التابع لكنيسة روما هو الوحى الذى يضمن صحتها . ونفس الشيئ يقال بالنسبة لأتباع كل الأديان [12]

ومع أن الصفة الخاصة بالعقيدة المسيحية ـ على سبيل المثال ـ هى كونها موحى بها . ومع أن كل العقائد تشاركها هذه الصفة المميزة ، فإن كلمة " عقيدة " تتسع اليوم لتشمل مؤكدات متعددة ، ومختلفة نوعاً ما ، يمكن حصرها فى مجموعتين على الأقل ؛ ذلك أنه يمكن بادئ ذى بدء أن نفرد القضايا الأساسية فى الدين : أنها بالطبع قضايا عقلية فى ذاتها ، لأن العقل إذا ترك وشأنه لايجد أمامه إلا افتراضها وتأكيدها معتمداً على نوع من الأمان والثقة الذاتية . أقول على نوع من العاطفة التى لايشعر بها بعض الناس ، بينما يجب ، فى تقدير البعض الآخر ، أن نفهمها على أنها وحى فطرى ، يجده كل منا فى نفسه . ومهما يكن فإن هذه القضايا لايمكن إثباتها بطريقة موضوعية ، أى أنها غير قابلة لطرائق الاستدلال العلمى . من هذه القضايا تأكيد وجود الله ، وتأكيد عنايته ، أو تأكيد وجود الروح والحياة الأخرى .

وتمتاز هذه القضايا ، أولا ، ببساطتها . إنها لايمكن الاستدلال على صحتها بدقة ، لكنها متصورة ، ويمكن للعقل البشرى أن يتأكد من صحتها بطرائق تتدرج سهولة وصعوبة وقوة وضعفاً ، معتمداًعلى تأمل مفاهيم السببية والغائية والعدالة .

وتمتاز هذه القضايا ، ثانيا ، بأنها منتشرة غاية الانتشار ؛ إذ نجدها حالياً موجودة فى أساس معظم الأديان الحية وكثير من الديانات التى كانت موجودة فيما مضى . حقيقة ، إن كل دين يبرر وجودها

---

[12]) إلا الإسلام !!!

بطريقته الخاصة ، غير أنه لايجد صعوبة فى هذا التبرير ، لما يراه من أنها فطرية . وقد كان المسيحيون القدماء يقولون : إنه إذا كان فى استطاعة العقل البشرى أن يثبت هذه القضايا الأولية بسهولة ، فذلك لأن الروح تعرف خالقها. وكانوا يضيفون أن آدم قد تلقى بين يدى الله وعنه مباشرة معرفة تامة لأسس الإيمان الضرورية ، معرفة أورثها لعقبه ، يجدها كل منهم فى أعماق كيانه . ثم إن موسى والأنبياء ، وحتى عيسى نفسه (ومحمد أيضاً) جاءوا الواحد بعد الآخر ، يؤكدون هذه الحقيقة ويبررونها . فكل دين من الأديان السماوية ينظم ، لحسابه الخاص ، وطبقاً للزاوية التى تلقى الوحى من خلالها ، هذا (هو) التراث المشترك من النظر الإنسانى فى الدين .

وإلى جانب هذه القضايا الأولية توجد قضايا خاصة أكثر تعقيداً ، قضايا لايسيطر عليها العقل . إنها تلك التى قال الأسقف " مينيوت **Mignot** " بصددها : " العقيدة هى فى حد ذاتها أعجوبة غير قابلة للتصديق . إنها شيئ مرعب ، إنها تقتضى إذلال العقل وخضوعه لما لايمكن فهمه . كما أنها يترتب عليها من الآثار الروحية والأخلاقية ما قد لايكون فى الاستطاعة اختراعه. "[١٣] وعلى سبيل المثال ، فالقول بأن الإنسان يولد حاملاً لبذور هلاكه المرتبط بخطيئة ارتكبها أبو البشر فى جنة عدن ، ليس على الإطلاق وضعاً لفكرة يمكن فهمها أو قبولها . إنها عقيدة الخطيئة الأصلية . والقول بأن عيسى قد ولدته عذراء ، بعد أن حدثت معجزة حملها به عن طريق روح القدس ، هذا القول ليس خروجاً عن دائرة التجربة فقط ، بل خروجاً عن دائرة العقل . أريد أن أقول : إن عقيدة حمل العذراء ، إذا نظر إليها فى حد ذاتها ، لاتعطينا أى مادة للاستدلال العقلى ، وهو الاستدلال الذى يستهدف تقرير صحة هذه العقيدة ، وصحة النصوص التى قامت عليها ، والقول بأن عيسى ، الذى يمكن اعتباره من الناحيتين : الروحية والدينية فوق مستوى البشر، سمواً وسناءً ، القول بأن هذا الرجل هو إنسان كامل ، أى ليس له مظهر إنسان فقط ، وهو فى نفس الوقت تجسيد للإله اللامحدود ، والذى لايمكن تصور كنهه ، أى أن جسده المرئى المحدود بالضرورة قد احتوى اللامتناهى الإلهى . هذا القول لايمكن تصوره . إنها عقيدة التجسد المعتمدة على عقيدة أخرى ، هى القول بطبيعتين كاملتين فى المسيح . ومن الميسور أن ندرك أن كل محاولات الاستدلال على صحة هذه العقيدة ليست سوى مجرد دعاوى ، تعتمد على أكثر أنواع الشقشقة اللفظية تفاهةً وخلواً من المعنى . والقول بأن الله هو فى نفس الوقت واحد ومثلث ، وأن الإنسان يتمثله على أنه ثلاثة أشخاص متميزة : الأب ، والإبن

---

[13]) جنيبيرت ٥٨ نقلا عن : Critiqueet tradition, dons le correspondont du 10 Janvier, 1904.

، والروح ، ثم يتمثله فى نفس الوقت على أنه واحد وحدة كاملة ، هذا القول ليس من السهل تطويع العقل البشرى لقبوله دون أن نكرهه على الخروج عن طبيعته ، وأن نفرض عليه معرفة مايستحيل معرفته.

هذه العقائد كلها ، وغيرها مما هو على شاكلتها ، هى فى الحقيقة مما لايمكن للإنسان فهمه ، بل مما لايمكن له تصوره . والإيضاحات التى يحيطها بها رجال اللاهوت ليست سوى تأويلات وصيغ مدرسية ، أو شرح لايضمن صحتها إلا السلطة العليا الرفيعة التى يقبل المؤمنون أن رجال الكهنوت وحدهم هم الذين يجوزونها .

والحق أن هذه العقائد تمثل " مجموعة " من المعارف التى لايمكن أن تكون على شاكلة المعارف الموضوعية ، " إنها لرفعتها وسموها ، تظل لاعلاقة لها بالحياة العقلية التى نحياها " كما أنها لايمكن تصورها إلا على أنها أشياء موحى بها ، يعترف المرء سلفاً بأنه لايمكن تمحيصها ، غير أنها أشياء يستدعى تنظيمها إقامة بناء عقائدى ضخم ومعقد ينتظم كل مسائل ما وراء الطبيعة.... فالعقائد الحقيقية ، وهى تلك التى تولد ، وتتطور ، وتتحول ، وتحيا ، وتموت ، هى هذا النوع الثانى من العقائد . هى التى لايمكن أن تبرر وجودها إلا معتمدة على الوحى.[14] أو على قداسة مصدرها ، سواء كان هذا التقديس مؤسساً على عصمة أو مركز روحى يوهم المؤمنين بأنه رأى يتفق مع مفهوم الوحى المنزل من السماء .

الـديـن

تبدأ الخطوة الأولى فى دراسة الأديان بتحديد مصطلحات هذا العلم ، فهذه البداية ، وإن كانت لازمة فى كل العلوم ، فهى فى مجال علم الأديان من الأمور الأساسية ، التى لاتقوم الدراسة إلا على أساسها ، ذلك أن الدين عبارة عن أفكار وتصورات لايصل الباحث إليها إلا من خلال المُصطلحات التى تُفصح عنها ، والكلمات التى تكمن وراءها خوالج النفس ، وثوران العواطف الدينية ، واهتزازات الوجدان من جراء سماع، أو ترديد تلك الكلمات المعينة ، أو تخيل صورة ذات أثر على الوجدان ، أملتها صيغ دينية ، وحركتها نصوص مقدسة .

ولهذا كان لابد لمن يريد دراسة الأديان أن يغوص وراء المصطلحات ، ويحاول استكشاف معانى الكلمات التى تتردد فى عالم الطقوس والعبادات ، ويزيح الستار – كلما أمكن ذلك – عن سر القوة المنبعثة من عملية اتصال الإنسان بالمقدس ، سواء كان ذلك عن طريق الممارسات العملية ، أو بواسطة ترديد

---

[14]) قارن : جنيبرت ٥٦ – ٥٧

كلمات معينة ، ومدى تأثير الزمان والمكان فى إشعال الوجدان الروحى ؛ إذ بدون هذا البحث عن معانى المصطلحات الدينية لايستطيع الباحث تحديد المراد من الكلمات التى تدور فى هذا العالم اللامتناهى ، مثل:

الدين ، المقدس ، التابو ، المحرم ، المعبود ، الطقوس .....الخ

كما يساعد تحديد المصطلحات طلاب هذه الدراسات على فهم مناهج هذا العلم ، ويحدد لهم طرق البحث وأطرافه وموضوعاته .

وأول ما يتعين على الباحث تحديده فى هذا المجال كلمة :

" الديـــــن "

فهى – إلى كونها أصلاً لهذا العلم ، وأساساً لكل ما يتضمنه من بحوث ودراسات – من الكلمات التى تجرى على ألسنة الناس جميعا ، بصرف النظـــر عن مستوياتهم العلمية والحضارية ؛ إذ يستعملها العالم وغير العالم ، وينطق بها من يعيش فى الكهوف والصحارى والوديان ، ومن يسكن القصور والعمارات الشاهقة ، لأن الديـــن عنصر أساسى فى حياة الناس ، أفراداً وجماعات، بل إنه يلعب دوراً هاماً فى سلوك كل الناس ، حتى الذين تنكروا له تحت ضغط الحياة المعاصرة ، أو رفضوه انفعالاً وتأثراً بتيارات الفكر المادى الذى كاد أن يسيطر على عقول المفكرين والباحثين فى عالمنا المعاصر .

فما معنى كلمة : " الديـن ؟ وما المقصود بهـا ؟

الديـــن

حاول العلماء والباحثون فى مجال مقارنة الأديان تعريف الدين ، وتحديد معناه ، لكن كثرة التصورات الدينية للمعبود والمقدس وتنوعها ، وتعدد صيغ العبادات واختلافاتها – فى الأداء والمضمون اختلافاً يستحيل معه وضعها فى إطار واحد – حال دون الوصول إلى تعريف محدد جامع لكل الأديان ، مانع لكل ماعدا الدين من الدخول تحت هذا التعريف ، لهذا تعددت التعاريف بتعدد مواقف المفكرين ومذاهبهم فى فهم الوجود ، وتحديد علاقات الموجودات بعضها ببعض .

فمن الباحثين مَنْ نظر إلى الدين من ناحية أنه أعمال أو سلوك يدل على اعتقاد جماعة بوجود قوة إلهية غير مرئية ، تُدَبِّرالأشياء ، كما تدبر أمور الإنسان ومصيره ، مع رغبة فى إرضاء تلك القوة بالطاعة أو العبادة. [15]

وكان هناك مَنْ نظر إلى الدين من ناحية أنه أداء لشعائر، أو اتباع لأوامر مصدرها الإيمان بتلك القوة واقترنت بذلك طريقته فى التفكير، أو السلوك الأخلاقى الذى يترتب على هذا الاعتقاد، يقول "كانت" فى كتابه (الدين فى حدود العقل): "الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية ".

وهناك مَنْ نظر إلى الدين من حيث مظهره فى الحياة الاجتماعية ، فرآى أن ذلك يتمثل فى الشعائر التى يؤديها الأفراد معاً ، وفى دورها فى تنظيم حياة الجماعة ، وفى ذلك يقول "سانت جيمس Saint James" : " إن العقيدة التى لاتدور حولها أى شعائر ، أو طقوس تموت ، لأنها تكون وحيدة ومنعزلة "، ويقول آخر : ".... فإن المرء لايكون متديناً إن لم يكن سلوكه خاضعاً – بشكل ما – للخوف من الله " ، ومن ناحية أخرى فإن الشعائر والطقوس المجردة من كل اعتقاد دينى لاتعتبر ديناً.[16] ويقول "سانت

---

[15]) يقول فريزر : " الدين : هو التزلف والتقرب إلى القوى العليا التى تفوق الإنسان والتى يعتقد أنها توجه سير الطبيعة ، والحياة البشرية ، وتتحكم فيهما . وعلى أساس هذ التعريف يتألف الدين من عنصرين ، أحدهما نظرى ، وهو : الإيمان فى وجود قوة أعلى وأسمى من الإنسان ، والآخر عملى ، وهو : محاولة استمالة هذه القوة وإرضائها.(الفصن الذهبى صـ ٢١٧-٢١٨)

ويرى "دوركايم" أن كل الظواهر الدينية تنقسم إلى قسمين أساسيين ، هما : "العقائد" و "الطقوس" . وتفترض العقائد تقسيم الأشياء والعالم إلى ماهو مقدس وماهو غير مقدس . وهذا التقسيم إلى المقدس وغير المقدس ، هو الصفة المميزة للفكر الدينى ، مهما بلغت = = درجة سذاجته أو تعقيده . ولذلك كانت العقائد الدينية ، هى أفكار أو تصورات تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة وغير المقدسة وما بينهما من علاقات . أما الطقوس فهى نماذج الأفعال ، و "أشكال السلوك" التى ينبغى أن يمارسها الإنسان حيال تلك الأشياء المقدسة .

[16]) فقد يتصرف شخصان بطريقة واحدة تماماً ، ومع ذلك يعتبر أحدهما متديناً ، والآخر غير متدين ، فأما الذى ينبع سلوكه من حب الله ، أو الخوف منه فإنه يكون متديناً ، وأما الذى ينبع سلوكه من حب الناس ، أو خشيتهم فإنه يعتبر شخصاً أخلاقياً، او لاأخلاقياً ، تبعاً لسلوكه ، متفقاً مع الخير العام ، أو متعارضاً معه . ومن هنا كان الإيمان والممارسة ، أو بالتعبير اللاهوتى : العقيدة والشريعة ، على درجة واحدة من الأهمية بالنسبة للدين ، إذ لايمكن له أن يقوم بدونهما معاً. ولكن ليس من الضرورى أن تتخذ الممارسات الدينية شكل الشعائر، أى أنه ليس من الضرورى أن تتألف من تقديم القرابين و تلاوة الصلوات وما إلى ذلك من الطقوس الظاهرة الملموسة. فالهدف من الشعائر هو إرضاء الرب ، والرب نفسه كائن يجد الغبطة فى الإحسان والرحمة والتطهر أكثر مما يجدها فى إراقة دم الأضحيات، وترتيل الترانيم ، وحرق البخور. وعلى ذلك فإن العُبَّاد لايستجلبون رضا الرب بالتذلل والاسترحام أو بالتسبيح بحمده ، وتقديم الهدايا والقرابين الغالية الثمن فى معابده ، بقدر ما يُرْضونه عن طريق التطهر والرحمة والإحسان للآخرين ، لأنهم بذلك إنما يحاكون كمال الطبيعة الإلهية بقدر مايسمح لهم به ضعفهم البشرى (فريزر صـ ٢١٨-٢١٩)

جيمـــس" أيضـــاً : " إن الدين الخالص الذى لاتشوبه شائبة قبل الاعتراف بالله والآب هـــو : أن تـــزور اليتامى، والأرامل ، وتواسيهم فى محنتهم ، وأن تطهر نفسك من أدران الدنيا ".[17]

وهاك بعض الأمثلة لاختلاف الباحثين فى تعريفهم للدين :

يقول "سيسرون " فى كتابه (عن القوانين) :

" الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية ".

ويقول " شلاير ماخر " فى (مقالات عن الديانة) :

" قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة ".

ويقول الأب " شاتل " فى كتاب (قانون الإنسانية) : " الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحـــو الخالق : واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحـــو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه ".

ويقول " روبرت سبنسر " فى خاتمة كتاب (المبادئ الأولية) :

" الإيمان بقوة لايمكن تصورنهايتها الزمانية ولاالمكانية ، هو العنصر الرئيسى فى الدين ".

ويقول " تايلر " فى كتاب (المدنيات البدائية) :

" الدين هو الإيمان بكائنات روحية " .

ويقول " ماكس موللر " فى كتاب (نشأة الدين ونموه) :

" الدين هو محاولة تصور مالايمكن تصوره ، والتعبير عما لايمكن التعبير عنه ، هو التطلع اللانهائى ، هو حب الله . "

ويقول " إميل برنوف " فى (علم الديانات) :

" الدين هو العبادة ، والعبادة عمل مزدوج : فهى عمل عقلى ، به يعترف الإنسان بقـــوة ســـامية ، وعمل قلبى أو انعطاف محبة ، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة ."

ويقول " ريفيل " فى (مقدمة تاريخ الأديان) :

" الدين هو توجيه الإنسان سلوكه ، وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية ، يعتـــرف لهـــا بالسلطان عليه وعلى سائر العالم، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها . "

ويقول " جويوه " فى كتاب (لادينية المستقبل) :

---

[17]) المصدر السابق صـــ ٢١٩

" الديانة : هى تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية ، والشعور الدينى : هـو الـشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائى فى الكون ".

ويقول " ميشيل مابير " فى كتاب (تعاليم خلقية ودينية) :

" الدين هو جملة العقائد والوصايا التى يجب أن توجهنا فى سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، وفى حـق أنفسنا ".

ويقول " سلفان بيريسيه " فى كتاب (العلم والديانات) :

"الدين : هو الجانب المثالى فى الحياة الإنسانية ".

ويقول " سالومون ريناك " فى (التاريخ العام للديانات) :

"الدين : هو مجموعة التورعات التى تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة ".

ويقول " إميل دوركايم " فى (الصور الأولية للحياة الدينية) :

" الدين : مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة)، اعتقادات وأعمال تضم أتباعها فى وحدة معنوية تسمى الملة ....." [18]

يتبين لنا من هذا العرض عدة ملاحظات :

أولاً : اختلاف وجهات النظر فى مفهوم الدين ، فمنهم من حصره فى العبادات والطقوس، ومنهم من تجاوز ذلك إلى ضبط السلوك والمعاملات ، وآخرون حـصروه فى التـأملات الروحانيـة ، والانفعـالات الوجدانية إزاء المقدس .

ثانياً : اشترك معظم الباحثين فى مراعات عنصر الألوهية فى التعريف ، وإن جاء التعبير عنها بصور مختلفة ، بينما حذف آخرون هذا العنصر بحجة أن هناك أدياناً خلت منه : كالبوذية فى مرحلتها الأولى (إذ يُنظَر إلى من ألَّهَ بوذا فى العصور المتأخرة على أنه مبتدع) ، والجاينية ، والكونفوشيوسية ، فقـد انحصرت تعاليمهما فى مبادئ أخلاقية ، ووصايا تتعلق بسلوك الإنسان وتعامله فى حياته الدنيوية. [19]

---

[18]) دراز : الدين صـــ ٢٩ – ٣٢

[19]) ذهب "دوركايم" إلى أن فكرة الألوهية ليست عنصراً مميزاً للحياة الدينية ، فلم يبدأ الدين ، بظهور فكرة الآلهة كما يرى "فريزر **Frazer** " حيث أن هناك ديانات قد صدرت واستقامت "بلا آلهة" ، فالبوذية – كما يقول "**Burnouf** " أخلاق بلا دين ، لأنها مذهب إلحادى لايعترف بفكرة الألوهية ، فلذلك أسماها "أولدنبرج **Oldenburg** " "ديناً بغير إله" .

ثالثاً : تناول بعض العلماء – وخاصة علماء الاجتماع – الدين من حيث مظهره فى الحياة الاجتماعية ، فرأوا أن ذلك يتمثل فى الشعائر التى يؤديها الأفراد معاً ، وفى دورها فى تنظيم الحياة الاجتماعية ، كما غلب على تعريفات معظم الباحثين تناول مظاهر التدين ، دون بيان مصدر الدين .

رابعاً : من المعلوم أن هناك أنواعاً من التقديس لأشياء معينة عند البدائيين ، أضفت على حياتهم نظاماً دينياً معيناً ، ومختلفاً من شعب لآخر حسب نوع المقدس وقوة تأثيره على حياة من قدسوه ، كما أن هناك أنواعاً من التدين ، أو التقديس الفلسفى ، وأنواعاً أطلق عليها " الديانة الطبيعية " التى يزعم أصحابها أنها يمكن أن يتوصل إليها العقل الإنسانى ، مع أن الأصول التى وضعوها لمثل تلك الديانة موجودة فى الأديان المنزلة التى عرفوها ، وربما تربوا عليها ، وهناك أديان مخترعة . مثل (دين الإنسانية) ، بالإضافة إلى ديانات الشرق القديم الآسيوى التى لم يتوصل العلماء إلى جذورها ، أو يقفوا على مصادرها الأصلية .

فهل دخلت هذه الأديان – وغيرها ، وهو كثير منبث فى جميع أركان المعمورة ، حيث لم يستطع أحد حتى الآن حصرها ، على الرغم من التقدم الهائل فى الاكتشافات ووسائل الاتصالات– فى هذه التعريفات ؟ لا.... ولن.....

خامساً : لن يستطيع عالم الإتيان بتعريف يجمع كل الأديان ، وبالتالى لايوجد فى علم الأديان اتفاق على تحديد معين ، أو تعريف جامع لكل التصورات الدينية المنتشرة فى المجتمعات الإنسانية. كما أنه ليس هناك أمل فى الوصول إلى تعريف مقبول يندرج تحته جميع الأديان ، خاصة وأننا نعيش فى ظل حرية ثقافية ، أتاحت للإنسان – إلى حد ما – أن يختار ما يروق له من العقائد ، وأن يمارس حرية النقد لكل ماورثه من تقاليد وعادات ، حتى وإن كانت قائمة على معتقدات دينية ، فكيف تندرج هذه التوجهات المتعددة – التى أتاحتها هذه الحرية – تحت تعريف واحد ؟ بل كيف يمكن إدراج هذه المعتقدات غير الثابتة مع الدين ذات التعاليم المطلقة ، والعقائد التى لاتتغير؟

و"الجاينية Jainism " ، أيضاً هى ديانة لاتعترف بوجود إله ، والعالم عندهم قديم ، ولذلك أنكرت "الديانة الجاينية" ، وجود الموجود "الخالد" "الكامل"، ولذلك حذف "دوركايم" فكرة "وجود الإله" كعنصر مميز للحياة الدينية، وكشرط أساسى لظهور الدين. [إسماعيل : ٨٦ – ٨٧]

هذا بالنظر إلى المُعْتَقَد (= الدين) بوجه عام ، أما إذا نظرنا إليه من جانب أصحاب الأديان المُنَزَّلَة من عند الله (اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام) ، لوجدنا أن هذه الأديان المُنَزَّلَة الثلاثة تشترك فى أنها :

- منزلة من عند الله.
- أتت من طريق واحد ، وهو الوحى.
- جاءت مبادئها فى صورة تعاليم حقيقية ، وضعت نظاماً للحياة.
- نشأت حولها (أى المبادئ والنصوص المنزلة) علوم العقائد وفلسفتها،كما نشأت حضارة العلوم ، والفلسفة ، والآداب ، والفن بوجه عام.

وهذا هو الفرق بين التعليم الإلهى للبشر ، وبين ما يتوصل إليه المفكرون بعقولهم مع شئ من الاستدلال ، أو يخترعونه على نحو متكلف ، أو تعسفى ، وليس له بقاء .

فما هو تعريف هذا الدين ؟

ينبغى علينا – قبل أن نبين هذا التعريف – ، تحديد المعنى اللغوى أولا ؛ لأن ألفاظ اللغة تصورية ، " بمعنى أن وقوع اللفظ فى سمع الفرد يؤدى إلى تصور مايفيده هذا اللفظ من معان ، وهولايستطيع – أبداً – أن يفهم المعنى بغير ذلك التصور ، كما أنه من جانب آخر يتأثر فى هذا التصور بأفكاره الخاصة ، ومايملأ رأسه من معان سابقة ".[20]

فماذا يفهم العربى عند سماع كلمة - الدين -؟

وهل ينطبق مايدل اللفظ عليه من تصورات عن الدين في فكره مع الوحى المنزل؟

نلاحظ أن اللغة العربية لم تحدد معنى لكلمة " الدين " تحديداً واضحاً، ولاغرابة فى هذا ، فالاستعمال اللغوى لكلمة الدين هو ترجمة لصور التقطها الفكر من البيئة ، حيث يشعر الإنسان أن الدين يدخل فى جوانب كثيرة من جوانب الحياة ، بل لايكاد المرء يفصل بين ماهو دينى وماهو غير دينى فى حياة المجتمعات البشرية قبل النهضة الحديثة ؛ إذ كان الدين هو الذى يرسم للناس معالم الحياة كلها ، ولم يعرف الإنسان

[20]) العشماوى : رسالة الوجود صـ ٧٢

الفصل بين الدين وبين شئون الحياة الأخرى على هذا النحو المطبق فى المجتمعات العلمانية ، والمقلدة لها ، إلا بعد ظهور نظرية الفصل بين الدين والدولة، التى سيطرت على معظم شعوب العالم بعد الثورة الفرنسية ، ولهذا تباينت معانى كلمة الدين ، طبقاً لاستعمالاتها فى جميع مجالات الحياة ، فالدين يطلق فى اللغة العربية على عدة معان ، منها :

١- الجزاء ومنه قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : الرابعة]

أى يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة . كما يقال : " كما تدين تدان " أى كما تُجَازِى تُجَازَى بفعلك ، وقيل : " كما تَفْعَل يُفْعَل بك ".

٢- الحكم والسلطان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ . . ﴾

[يوسف: ٧٦]

أى فى حكم الملك وسلطانه ، ومنه : " الدَّيان " ، وهو من أسماء الله عز وجل ، ومعناه : الحَكَم والقاضى ، فقد سئل بعض السلف عن علىﷺ ، فقال : " كان ديان هذه الأمة بعد نبيها " أى قاضيها وحاكمها . والديان : القهار ، ومنه قول ذى الأصبع العدوانى :

لاهِ ابنُ عمِّك لأفْضَلْتَ فى حَسَبٍ * فينا ولا أنت دَيَّانِى فَتَخْزُونِى

أى لست بقاهرى فتسوس أمرى . ويقال : " دِنْتُهم فدانوا " أى قهرتهم فأطاعوا .

٣ - الطاعة ، يقال : " دِنْتُ له " أى أطعته، كما يقال : " دان له ديناً وديانة ، أى خضع وأطاع ، قال عمرو بن كلثوم :

وأيَّاماً لنا غرًّا كراماً * عصينا الْمَلْك فيها أن ندينا

٤ - الذل ، يقال : "دانه ديناً " ، أى أذله واستعبده ، والمدين: العبد ، يقول الله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٦]

قال الفراء : " غير مدينين " ، أى غير مملوكين ، وفى الحديث :

" الكَيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الموت "[٢١]

---

[21] سنن الترمذى : كتاب القيامة ، باب ٢٥ ، والحديث تحت رقم ٢٤٥٩ .

قال أبو عبيدة : قوله : " دان نفسه " ، أى أذلها واستعبدها .

٥ – العادة والشأن ، تقول العرب : "مازال ذلك دينى ودَيْدَنى" ، أى عادتى. قال المنقب العبدى، يذكر ناقته :

تقول : إذا درأتُ لها وضينى * أهذا دينه أبداً ودينى "[22]

ويبدو من ملاحظة هذه المعانى أنها تؤلف وحدة كلية ، يعبر كل معنى عن إحدى جوانبها – وهو الله – يُلْزِم المحكوم – وهو الإنسان – باتباع أسلوب معين مرسوم (يشمل عبادات ومعاملات) ، للتعبير عن طاعته ، وعبوديته له سبحانه وتعالى ، ووعد من امتثل (أى التزم بما ألزمه الله به) نجاحاً فى الدنيا ، وفلاحاً فى الآخرة ، وتَوَعُّد من خالف بؤساً (مادياً أو نفسياً) فى الدنيا ، وعقابا يوم الحساب .

فالمعانى متصلة ، بعضها ببعض اتصالاً لاينفك ؛ لأننا إذا نظرنا فى اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصريفها ، نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقارباً شديداً ، بل صلة تامة فى جوهر المعنى ، إذ نجد أن هذه المعانى الكثيرة تعود فى نهاية الأمر إلى ثلاثة معانى ، تكاد تكون متلازمة ، بل نجد أن التفاوت بين هذه المعانى الثلاثة مرده فى الحقيقة إلى أن الكلمة التى يراد شرحها ليست كلمة واحدة ، بل ثلاث كلمات ، أو بعبارة أدق : أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب.

بيان ذلك أن كلمة " الدين " تؤخذ تارة من فعل مُتَعَدٍّ بنفسه : "دانه ديناً "، وتارة من فعل مُتَعَدٍّ باللام : " دان له "، وتارة من فعل مُتَعَدٍّ بالباء : " دان به". وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التى تدل عليها الصيغة :

١. فإذا قلنا: " دانه ديناً " عنينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه ، وساسه ، ودبره ، وقهره وحاسبه ، وقضى فى شأنه ، وجازاه ، وكافأه. فالدين فى هذا الاستعمال يدور على معنى المُلك والتصرف بما هو من شأن الملوك : من السياسة ، والتدبير ، والحكم، والقهر و المحاسبة ، والمجازاة . ومن ذلك : " مالك يوم الدين " ، أى يوم المحاسبة ، والجزاء ، وفى الحديث : "الكيس من دان نفسه " أى حكمها ، وضبطها . والديان : الحَكَم والقاضى.

٢. وإذا قلنا: "دان له" ، أردنا أنه أطاعه ، وخضع له. فالدين هنا : هو الخضوع ، والطاعة ، والعبادة ، والورع ، وكلمة : " الدين لله " يصح أن يفهم منها كلا المعنيين : الحكم لله ، أو

---

[22]) درأه : دفعه شديدا ، والوضين : بطان منسوج من سيور أو شعر .

الخضوع لله. ومن الواضح أن هذا المعنى الثانى ملازم للأول ، ومطاوع له : " دانه فدان لـه "، أى قهره على الطاعة ، فخضع وأطاع.

٣. وإذا قلنا : " دان بالشيء " ، كان معناه : أنه اتخذه ديناً ومذهباً ، أى اعتقده ، أو اعتاده، أو تَخَلَّق به. فالدين على هذا : هو المذهب والطريقة التى يسير عليها المرء نظرياً ، أو عملياً ، فالمذهب العملى لكل امرئ : هو عادته وسيرته ، كما يقال : " هذا دينى ودَيْدَنى ". والمذهب النظرى عنده : هو عقيدته ، ورأيه الذى يعتنقه ، ومن ذلك قولهم :" دَيَّنْتُ الرجل " ، أى وكَلْتُه إلى دينه، ولم أعترض عليه فيما يراه سائغاً فى اعتقاده .

ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع للاستعمالين قبله ، لأن العادة ، أو العقيدة التى يدان بها ، لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ، ويلتزم باتباعها.

وجملة القول فى هذه المعانى اللغوية : أن كلمة : " الدين " عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين ، يُعَظِّمُ أحدُهما الآخر ، ويخضع له ، فإذا وُصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً ، وإذا وُصف بها الطرف الثانى كانت أمراً وسلطاناً ، وحكماً وإلزاماً ، وإذا نُظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين ، كانت هى الدستور المُنَظِّم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذى يعبر عنها.

ونستطيع الآن أن نقول: إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد ففى الاستعمال الأول، الدين : هو إلزام الانقياد ، وفى الاستعمال الثانى : هو التزام الانقياد ، وفى الاستعما الثالث : هو المبدأ الذى يلتزم الانقياد له ".[٢٣]

وهكذا نجد أن كلمة " الدين " تدور حول المعانى المتعلقة بالمعبود ، وما يتصل به من تشريعات وقوانين ، وما يتعلق به من عُبَّاد له ، خضعوا لأوامره ، فنفذوها ، وصاروا بذلك منتسبين إليه ، ويظهر ذلك واضحاً أيضاً عندما نبحث عن معنى كلمة " الدين " فى اللغات الأخرى ، فهى مشتقة فى اللغة اللاتينية من كلمة " Relegere " ، ومعناها : " التأمل " وضدها : " Nerelegere " ، ومعناها : " الغفلة ". وتطلق كلمة " الدين " ويراد بها : المقدس ، وهو ماحلت فيه قوة غيبية (أى قوة تفوق قوى الطبيعة) ميزته عن

---

[23]) دراز . ٢٥-٢٧

الدنيوى " Profan "، وألبسته ثوب القداسة ، فاحتل مركزاً يرفعه عن غيره من الموجودات، ولذلك لايجوز الاقتراب منه إلا فى إطار التعاليم الدينية ، ويطلق عليه : " التابو Tabu ". [24]

فإذا وُصِف اسم بوصف مشتق من كلمة "الدين" دل ذلك على أن مسمى هـذا الاسـم مقـدس، وقداشتهر بهذا فريق من أتباع المسيحية فى القرون الوسطى ؛ إذ انحصرت معالم حياتهم فى الزهد ، والفقـر، وعدم الزواج، والطاعة المطلقة للكنيسة ، ودوام الصلاة ، فأُطْلِق عليهم : "رجال الدين"، أى المقدسون. [25]

---

[24]) كلمة بولينيزية ، أصلها فى هذه اللغة : " Tapu " ، اكتشفها الرحالة " جيمس كوك James Cook " فى الجزر الواقعة فى المحيط الهادى ، وذلك فى عام ١٧٧٧ م ، وهى من الكلمات التى يصعب ترجمتها ترجمة دقيقة ، ولذا أصبحت مصطلحـاً علمياً فى الكتابات الأنثروبولوجية ، والاجتماعية ، ولدى علماء الأديان فى جميع اللغات . ويقصد بها الأشياء المقدسة – وكذلك الأشخاص – التى لايجوز لأحد الاقتراب منها ، وإلا عـرض نفسه للخطر ، أو دنس الشعائر التى يمارسها، ولا يقتصر مبدأ التحريم على مجرد اللمس فحسب ، بل يتعداه إلى الرؤية والكلام وتناول الطعام . فإن رؤية الأشياء المقدسة تحريماً تاماً على غير المقدس . وهناك بعض الطقوس عند "الأرانتا Arunta " تفرض على أفرادها صمتاً تاماً ، فيحرم الكلام بطريقة جبرية فى الاحتفالات الدينية الكبرى . كما أن هناك بعض الكلمات المعينة التى لاينبغى أن ينفوه بها الأفراد ، كأن لايذكر مثلا اسم الميت فى فترة الحداد إلا همساً ، وإذا اقتضت الضرورة . كما تتضمن فكرة التحريم ، فكرة القداسة ، إذ أن كل ماهو مقدس ، يعتبر موضوعاً للتبجيل والاحترام ، فيحرم لذلك ذبح الحيوانات أو تناول النباتات المقدسة . [راجع ! إسماعيل ٩٠ – ٩٢]

يرى " NÖLLE " أنها تؤدى معنى كلمة " Mana " (طاقة سحرية) ، إذ يلاحظ كلا المعنيين فـى تصـور المقدس (التابو) لدى الشعوب البدائية ، ولا يقتصر تحريم الاقتراب على الأشياء ، أو الأشخاص المقدسين – لأن لديهم الطاقة السحريـة أو تكمن فيهم القوة الغيبية – ، بل تتناول أيضاً كل ما حرمه الكاهن فى المجتمعات البدائية ؛ فتصان حرمة رئيس القبيلة ، طـبـقـاً للعادات والتقاليد الدينية ، ويحرم لمس الحائض والنفساء ، وكذلك الميت ، وإلا لحق الضرر من يخالف هذا . وعليه فيكون معنى (التابو) : لايجوز فعل كذا ..... أو لاينبغى الاقتراب من كذا ، إما لقداسته ، أو لدنسه ونجاسته .

ويرى " فرويد Freud " فى كتابه عن " الطوطم والتابو " أن أقرب ترجمة للكلمة هى : " الخـوف المقـدس " ، لأنـها تجمع بين خاصية القداسة التى تتمتع بها الأشياء التى تعتبر (تابو) ، وبين التحريمات والقيـود التى تفـرض علـى الناس إزاء = = هـذه الأشياء (كتحريم لمس الحائض والميت ... إلخ) . وتختلف قيود (التابو) عن القيود الرتيبة ، فى أنها لاتصدر عـن أمـر إلهى ، ولكن الناس أنفسهم يفرضونها بأنفسهم ، كما تختلف عن النواحى الأخلاقية ، فى أنها لاتدخل ضمن نظام متماسك يبرر لنا هـذه التحريمات ، ويبين أسبابها وأصلها ، ولذا فإن قواعد التحريم فى (التابو) تُقْبَل على علاتها كأمر لامفر منه .

ويعتقد بعض الأنثروبولوجيين أن (التابو) هو أقدم قانون مكتوب للجنس البشرى . وتحريمات (التابو) تحريمات قـاطعة ، ولذا فإن خرق (التابو) يستتبع بالضرورة توقيع العقوبة والجزاء ضمنياً ، وإن كانت هناك حالات يتولى المجتـمـع ذاتـه تـوقـيـع العقوبة على المعتدى فيها ، على اعتبار أن خرق (التابو) يلحق الأذى ، ليس بالشخص وحده ، وإنما بالمجتمع ككل ، وجعله هو نفسه (تابو) ، أى مصدر للأذى ، لأن لـ (التابو) القدرة على الانتقال من شيء لآخر ، أو من شخص لآخر .

(أنظر: "Nölle" : ٢٨٤ ، و " فريزر Frazer " ١٣٠)

[25]) تأثر بهذا كثير من المسلمين ، فأطلقوا على من لبس المُرَقَّع من الثياب ، وتسول حول الأضرحة : الدراويش (درويش : كلمة فارسية ، ومعناها : فقير ، أو زاهد) ، وفهموا أن هؤلاء الذين يأكلون سحتاً أقرب إلى الله من غيرهم . وتلك نكسـة فى فـهم المسلمين

وقد عرف أحد رجال الدين المسيحى – وهـــو القديس توما الإكوينى – " الدين " ، بأنه عبارة عن الفضيلة التى بها يؤدى الإنسان لله ما يستحقه من التعظيم • ويعرفه " لاكتانتيوس" – وهو مـــن رجـــال الدين المسيحى فى القرن الرابع الميلادى – بأنه الاتصال بالله بواسطة الأعمال الصالحة التى يتقرب بها العبـــد إلى خالقه.[٢٦]

ومن هنا أُطْلِق الدين عند الكاثوليك وأُرِيد به علاقة الإنسان بالإله ، الحى ، الذى أنـــزل وحيـــاً ، وأوصى بإقامة كنيسة لحفظ هذا الوحى ، ولهذا فالدين عندهم يتمركز فى المؤسسة الدينية :

الكنيسة :

– ومن يتولون مناصبها (رجال الدين)،

– وقوانينها ،

– وأنظمتها ،

– وطقوسها ،

– وأسرارها المقدسة ،

– وانفرادها بالتبجيل والاحترام ،

– والخضوع لها خضوعاً كلياً.

لتعاليم الإسلام وروحه ؛ ألم يقرءوا ماروى عن قبيصة بن مخارق الهلالى ، فى رواية مسلم ، وأبى داوود ، والنسائى، قال: تحملت حمالة (أى دَيْناً فى سبيل عمل إنسانى) فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسأله فيها ، فقال : " أقم عندنا حتى تأتينا الصدقة ، فنأمر لك بها " ، ثم قال : " يا قبيصة ! إن المسألة (أى السؤال) لاتحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة (أى ديناً فى سبيل مصلحة عامة) فحلت له المسألة حتى يصيبها (أى حتى يحصل على ماتحمل)، ثم يمسك (أى عن السؤال). ورجل أصابته جائحة (أى آفة أو حادث) اجتاحت ماله (أى أتت على ماله) ، فحلت له المسألة حتى يصيب قِـوَاماً مـــن عـــيش – أو قال : سِدَاداً من عيش – (أى حتى ينال ما يستطيع أن يباشر به العمل فى سبيل العيش). ورجل أصابته فاقة (أى فـــقر بعـــد غنى حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قِوَاماً ، أو سِدَاداً من عيش. فمـــا سواهن من المسألة – ياقبيصة – سحتاً ، يأكلها صاحبها سحتاً ".

[26] قارن " Glasenapp : Die nichtchristlichen Religionen S . 11

إلا أن مفهوم الدين عند الذين تمردوا عليها – وهم البروتستانت أو الإنجيليون – يخالف تصور الكاثوليك ، فهم لايعترفون بالسلطة المطلقة للكنيسة ، ولا يقرون بانفراد " البابا" بتفسير الكتاب المقدس ، وشرح العقيدة ، ولايعترفون بعصمته .

كذلك عبرت كلمة " الدين " فى اللغات الأخرى عن تصور المتحدثين بها لمفهوم هذه الكلمة ؛ فالدين عند الصينيين : " Chiao " الشريعة. وعند الهنود : "Dharma " النظام الثابت. وعند الجرمان : مبدأ الكون ، أو القانون الإلهى ، أو النظام الإلهى .

ومن هذا العرض الموجز يتبين للباحث أن تعريف الدين – لغوياً – تعريفاً عاماً وشاملا ، غير ممكن ؛ لأن تصوره لدى الإنسان خاضع للعصر ، والبيئة ، والثقافة ، وهى مختلفة كل الاختلاف بين الشعوب والجماعات الإنسانية .

إذا كان استعمال كلمة " الدين " خاضعاً للعصر والبيئة ، وهما من العناصر الأساسية فى تكوين ثقافة الإنسان ، وبناء الصور الفكرية فى المجتمعات البشرية ، فمما لاشك فيه أن مفهوم الدين لايختلف كثيراً عن المعنى اللغوى له ؛ لأن اللغة هى تعبير عن المعنى المفهوم من قنوات المعرفة المتاحة للمُعَرِّف. ولما كانت هذه القنوات مختلفة ومتشعبة ، فمن اللازم أن يكون تعريف الدين أيضا مختلفاً من بيئة لأخرى ؛ إذ هو انعكاس لما بين الشعوب والأقوام من عناصر الاتفاق والاختلاف. والدليل على ذلك ماتراه من كثرة التعاريف التى قيلت ، تفسيراً وتحديداً لكلمة "الدين " ؛ إذ بينما يعرفه علماء المسلمين بأنه : "وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة – باختيارهم – إلى ما فيه صلاحهم فى الحال ، ونجاحهم فى المآل "

يذهب الفلاسفة وعلماء الاجتماع إلى تحديده بتعريفات لاحصر لها ، فيقولون إنه :

- " الرباط الذى يصل الإنسان بالله ".
- " نظام أو مجموعة من الحقائق العامة ، لها تأثير فى تكييف الخلق ، إذا صدق الاعتقاد بها وفُهِمَت فهما واضحا وقويا ".
- " مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة)، اعتقادات وأعمال تضم أتباعها فى وحدة معنوية تسمى : " الملة ."
- "توجيه الإنسان سلوكه ، وفقا لشعوره ، بصلة بين روحه وبين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه ، وعلى سائر العالم ، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها ."

- "جملة من العقائد والوصايا التى يجب أن توجهنا فى سلوكنا مع الله ، ومع النـــاس ، وفى حـــق أنفسنا ."
- "التزلف والتقرب إلى القوى العليا التى تفوق الإنسان ، والتى يُعتَقَد أنها تُوَجِّه ســـير الطبيعـــة ، والحياة البشرية ، وتتحكم فيهما ". [27]

وغير ذلك من التعريفات التى تعددت بتعدد الصور الفكرية ، والأنماط الثقافية فى المجتمعات البشرية، بل إن تعريف الدين داخل المجتمع الذى يؤمن بعقيدة واحدة يختلف من عصر لآخر ، لو تغـــيرت مظـــاهر المجتمع ، وذلك بأن يدخل عليها عنصر لم يكن موجوداً من قبل ؛ إذ نجد أنْ التغير غالبا مايكون سبباً فى تغيير مفهوم الدين ، والدليل على ذلك ماحدث فى المجتمع الإسلامى ، إذ عندما بَعُد فى العـــصر الحـــديث عـــن القانون الإسلامى ، فطبق قوانين بشرية – لم ، ولن تبلغ درجة الكمال – ميزت طبقة وأفراداً عن غيرهم ، انعكس رد الفعل فى تعريف الدين ، حيث أشار العلماء فيه إلى أن الله هو الكمال المطلق ، وما يصدر عنـــه كامل ، واتباع هذا الكامل – وهو الدين – يرفع من المجتمع سلبيات القانون البشرى مـــن تـــأثر واضـــعه بالبيئة، وتحيزه لفريق دون آخر ... و.... و.... إلخ.

فنرى أحد العلماء فى هذا العصر ، يعرف الدين ، فيقول : " إن الدين هو : ماكان لله ، وماكان من عند الله .... ومفهوم الله ليس شخصاً وُجِدَ فى زمن دون زمن ، وتأثر ببيئة دون أخرى ... إنما مفهـــوم الله حقيقة أبدية خالدة ، ترتفع فوق المستويات ، وتتجرد عما للكائنات جميعها من صفات ، هو الكمال المطلق فى ذاته ، وصفاته ، جل شأنه سبحانه وتعالى ، يقصر عقل الإنسان عن أن يحددها على نحو ماهى عليه ، وأن يصل إلى تصويرها فى تعبيره وفى شرحه إلى واقع أمرها.

هذه الحقيقة الأبدية الخالدة وهذا الكمال المطلق ، هو الذى نُسِب إليه الدين ، يوحى بـــه إلى مـــن اصطفاه ، ويكلفه بتبليغه إلى الناس ، والدين بعد ذلك هو : ماأُنزِل من عند الله للناس جميعا ، وما طُلِب من الرسول إبلاغَه إليهم ، حتى لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وإذا كان الدين هو المنزل من عند الله ، الحقيقة الخالدة ، الكاملة كمالاً مطلقاً ، فلا يكون إلا صورة من صور هذا الكمال ، لايشوبها نقص ، ولا يعتريها باطل ، ولا ينفذ إليها غرض ، يميز فريقاً عن فريـــق ، ويفصل بين جيل وجيل.

---

[27]) انظر : دراز : الدين : صـــ ٢٩ – ٣٠ ، فريزر : الغصن الذهبى : صـــ ٣١٧ ، إقبال : تجديد الفكر الدينى صـــ٦

وإذا كان من مفهوم الدين أيضاً : أنه ما يجب اتباعه بعد الإيمان ، وتجب الطاعة له بعد التمسك بـه – وكان قبل ذلك صورة من كمال الله جل شأنه – ، فاتباعه ، والسير على هداه يحقق حتماً الاستقامة : فى سلوك الإنسان المُتَّبِع ، المؤمن به وفى تفكيره ، وفى وجدانه ، وفى صلاته مع الآخرين ؛ لأنـه يـستحيل أن يؤدى الكمال إلى نقص ، كما يستحيل أن يستتبع الحق باطلاً .[28]

وخلاصة القول أن التعريف الاصطلاحى للدين هو: ترجمة للاستعمال اللغوى للكلمة، داخل إطـار الثقافة ، والعصر ، بما فيه من تصورات فكرية ، مكتسبة من العقيدة السائدة فى المجتمع .

هـل يجـوز أن نطلـق علـى كـل عقيـدة – أيـاً كـان مـصدرها ، وعلـى وضـع كـان مضمونها– ديناً ؟

وهل يصح أن نسمى العقيدة البدائية ديناً ؟

وهل يمكن أن تندرج عقائد الجاهلية – قبل الإسلام فى مكة – تحت اسم الدين ؟

اختلف الباحثون فى هذا ؛ فقال بعضهم : لايسمى ديناً إلا مانزل به وحى من السماء ، كالإسلام ، واليهودية ، والنصرانية . وقال آخرون : ليس هناك دين سوى الإسلام ، بدليل قوله تعالى :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : ١٩]

بينما ذهب المحققون إلى أن كل عقيـدة تتضمن الإيمان فهى دين ، حتى عقيدة مايطلق عليهم لفـظ " الكفار " ، بدليل قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ١-٦]

وقوله :

" وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" [آل عمران : ٨٥].

---

[28]) البهى : الدين والحضارة الإنسانية : صـ ٧٤ .

فـ "الغيرية" هنا تشمل ما عدا الإسلام ، سواء كان ديناً سماوياً أو غير سماوى ، وسواء كان يتضمن الأمر بالاعتقاد فى إله واحد ، أو يشتمل على آلهة متعددة .

أما ماستدل به القائلون بأن كلمة "الدين" لاتُطلَق إلا على الإسلام وهو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾

فإن المراد به : أن الدين الحق ، أو الدين الكامل ، الذى لم يدخله تحريف ، ولا تديل إنما هو **(الإسلام)** ، وما عداه من العقائد التى تشتمل على قوة غيبية ، فيُطلَق عليه " دين " ، ولكنه ليس ديناً صحيحاً – من وجهة النظر الإسلامية – ، لأنه باشتماله على الإيمان بقوة غيبية أصبح مندرجاً تحت اسم " الدين " العام .

قد يقال : إن عبادة الأصنام لاتشتمل على قوة غيبية ، لأن الوثنيين يصنعون الحجر بأيديهم، ثم يعبدونه ، **فأين الاعتقاد بقوة غيبية فى هذا الدين ؟**

يجب على الدارسين لعلم الأديان أن يضعوا نصب أعينهم ، بادئ ذى بدء ، أنه لايوجد إنسان على وجه الأرض يعبد صوراً مادية لذاتها ، وإنما لاعتقاده أن روحاً حلت فيها ؛ إذ لايعقل أن يأخذ الإنسان حجراً ويشطره نصفين ، يصنع من نصفه الأول إلهه ، يقدسه ، ويخافه ، ويخشاه ويتقرب منه ... بينما يستعمل النصف الآخر فى أماكن قضاء حاجته ، إلا إذا كان هناك عقيدة تُصَوِّر له أن ماصُنِعَ على هيئة الصورة الإلهية التى فى ذهنه قد حلت فيه روح هذا الإله ، فهو يعتقد أن الحجر بمجرد تشكيله على هذه الصورة ، تحل فيه الروح المعبودة ، وقد أجمع على هذا التفسير جميع الباحثين فى نفسية المتدينين وعقلياتهم.

فقد اتفقوا " على أنه ليس هناك دين – أياً كانت مرتلته من الضلال والخرافة – وقف عند ظاهر الحس، واتُّخِذَت المادة المُشاهَدَة معبودة لذاتها، وأنه ليس أحد من عُبَّاد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته فى الحقيقة هياكلها الملموسة، ولا رأى فى مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم. وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون أن هذه الأشياء مهبطاً لقوة غيبية ، أو رمزاً لسر غامض يستوجب منهم هذا التقدّيس البليغ ، فهى فى نظرهم أشبه شيئ بالتمائم والتعويذات التى يتفاءل ، أو يتبرك بها ، أو يستدفع بها شيئ من الحسد أو السحر [29]، لا على أن لها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار فى

---

[29]) لايزال الخلط بين الأفكار ، أو المزج بين الدين والسحر يظهر فى اشكال مختلفة بين الطبقات الجاهلة فى أوربا الحديثة . ويقال إن معظم الفلاحين فى فرنسا لايزالون يعتقدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لاتقاوم ، وأنه حين يتلو بعض الصلوات المعينة بالذات

الرماد ، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس ، بل على أن وراءها ، أو حولها روحاً عاقلاً ، مدبراً ، مستقل الإرادة ، يستطيع أن يغير بمشيئته من سير الأمور ، ومجرى العادات ، فيعطي ويمنع ، ويضر وينفـــع ، مـــن

التى لايعرفها سواه ، والتى لايحق لغيره أن يرتلها ، فإنه يستطيع فى حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعالم الفيزيقى ، أو حتى يقلبها تماماً ، ولكن يتعين عليه بعد أداء هذه الصلوات أن يطلب الغفران . فالرياح والعواصف والبرد والمطر تخضع لسلطانه وإرادته ، وكذلك النار . بل إن ألسنة اللهب تخمد بكلمة واحدة منه . ولقد كان الفلاحون الفرنسيون أيضاً يؤمنون ، ولعلهم لايزالون يؤمنون ، بأن فى استطاعة القساوسة أن يقيموا قداس الروح المقدس الذى يمارسون فيه بعض الشعائر الخاصة التى تصل فعاليتها حدًّا من الإعجاز لاتجدى معه أية معارضة من الإرادة الإلهية ، وإنما يجد الله نفسه مضطرًّا لأن يعطى كل مايُطلب إليه بهذه الطريقة مهما بلغ الطلب من الإسفاف والمبالغة . ولم يكن الناس يرون فى ممارسة هذه الشعائر خروجاً على أصول الدين أو قواعد السلوك ، خاصة وأنهم لم يكونوا يلجأون إليها إلا حين تصل قسوة الحياة عليهم حدًّا بالغاً لايملكون معه إلا هذه الوسيلة الغريبة لنيل مايريدون من مملكة السماء . ولقد كان القساوسة العاديون يرفضون فى العادة أداء قداس روح القدس بعكس الرهبان الذين كانوا يستجيبون بدون كثير من الحرج لنصرة المهمومين والمأزومين . ونستطيع أن نجد شبهًا قويًّا جدًّا بين هذا الضغط الذى يعتقد الفلاحون الكاثوليك أن القساوسة يمارسونه على الله وبين السلطة التى كان المصريون القدماء ينسبونها إلى السحرة عندهم . [فريزر ٢٢٤ – ٢٢٥] ولكن على الرغم من امتزاج السحر بالدين بهذه الطريقة فى كثير من العصور وكثير من البلاد ، فهناك من الأسباب مايدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الامتزاج ليس بدائيًّا . وأن الإنسان مر بعصر كان يعتمد فيه على السحر وحده فى إشباع تلك الحاجات التى تسمو =فوق شهواته الحيوانية المباشرة . والواقع أن دراسة الأفكار الأساسية فى السحر والدين تبين فى المحل الأول أن السحر أقدم من الدين فى تاريخ الإنسانية . ولقد تبين من الأبحاث فى هذا المجال أن السحر من ناحية ليس إلا تطبيقاً خاطئًا لأبسط وأسهل عمليات الفكر ، ونعنى بها تداعى الأفكار عن طريق التشابه أو التجاور ، كما أن الدين من الناحية الأخرى يفترض وجود كائنات مدركة واعية وشخصية أسمى من الإنسان وتعمل من وراء ستار الطبيعة الظاهر المرئى . ومن الواضح أن فكرة القوى أو الكائنات الشخصية مسألة أكثر تعقيدًا من مجرد إدراك التشابه أو الاتصال بين الأفكار ، كما أن النظرية التى ترى أن أحداث الطبيعة تتحدد بفعل قوى مدركة واعية هى نظرية أكثر عمقًا وغموضاً ، وتتطلب لفهمها من الذكاء والقدرة على التفكير درجة أعلى مما يتطلبه الاعتقاد فى أن تتابع الأحداث ناشئ من تجاورها أوتشابهها فحسب . فالحيوانات ذاتها تملك القدرة على الربط بين الأفكار المتعلقة بالأشياء المتشابهة أو الأشياء التى اعتادت أن تراها معا ، ولو عجزت عن ذلك لما استطاعت أن تعيش يوماً واحدًا . ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الحيوانات تعتقد أن ظواهر الطبيعة تحدث نتيجة لتدخل عدد كبير من الحيوانات اللامرئية أو بفعل حيوان واحد ضخم له قوة هائلة تختفى وراء هذه الظواهر . ولن نبخس هذه الحيوانات قدرها إذا قصرنا شرف إقامة مثل هذه النظرية الأخيرة على العقل البشرى وحده .وعلى ذلك فإذا كان من الميسور الاستدلال على السحر من عمليات التفكير الأولية مباشرة ، وإذا كان السحر – كما هو = = الأمر الواقع – نوعًا من الخطأ الذى يقع فيه العقل بشكل تلقائى تقريبًا ، بينما يرتكز الدين على أفكار لايمكن الزعم بأن الذكاء الحيوانى توصل إليها ، فإنه يصبح من المحتمل أن يكون السحر أسبق فى الظهور على الدين فى تطور الجنس البشرى ، وأن الإنسان عمد إلى إخضاع الطبيعة لرغباته باستخدام التعاويذ والطلاسم وحدها قبل أن يعمل على التقرب من الإله الحى الخجول المتقلب االغضوب ، ومحاولة استرضائه عن طريق السلوك الهادئ الدقيق الذى يتمثل فى الصلاة وتقديم القرابين . [المصدر السابق ٢٢٧ – ٢٢٩]

حيث لاينتظر الناس ذلك فى العادة ، وأن تلك المواد المُشاهَدَة ، ماهى إلا مظهر ، ومطلع يطل منه هذا الروح الخفى ، ويبارك من يتمسح بذلك الهياكل التى اتخذها له مظهرا " [30]

من الألفاظ التى شاع استعمالها فى مجال الفكر الدينى : الملة ، والنحلة :

فما معنا هما ؟ أيجوز إطلاقهما على كل عقيدة دينية؟ ..... أم أن لكل منهما مجالاً خاصاً ، وعقائد معينة؟

تُطلَق الملة ، ويراد بها – كما جاء فى معاجم اللغة – الشريعة ، أو الدين ، كملة الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية. ومعنى هذا أن الملل – وهى جمع : ملة – تُطلَق على الأديان المترلة ، يقول الراغب الأصفهانى : الملة كالدين ، وهو اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله.... أو هى كما يقول الفارابى : " آراء وأفعال ، مقدرة مقيدة بشرائط ، يرسمها للجميع رئيسهم الأول ، يلتمس أن ينال باستعمالهم لها غرضاً له– فيهم ، أو بهم – محدوداً "٠والفرق بينها وبين الدين ، أن الملة لاتضاف إلا للنبى ﷺالذى تُسنَد إليه ، نحو قوله تعالى :

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء : ١٢٥]

وقوله :

"وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي" [يوسف : ٣٨]

ولا تضاف إلى الله ، ولا إلى آحاد الناس ، كما تُستَعمَل فى جملة الشرائع دون آحادها، فلا يقال : ملة الله ، ولا يقال : ملتى ، وملة زيد ، كما يقال: دين الله ، ودين زيد . كذلك لايقال : الصلاة ملة الله.

أما النحلة – وتجمع على نحل – فأصلها اللغوى من الانتحال ، يقال: انتحل فلان شعر غيره ، أو قول غيره ، إذا ادعاه لنفسه. وتَنَحَّله : ادعاه وهو لغيره ، وواضح أن مدلول الكلمة يشير إلى الكذب والادعاء الذى ليس له أساس صحيح ، وتلك طبيعة النحل والعقائد التى تتنكر لهدايات الله ، وتكفر برسله.

وهذا ما اصطلح عليه جمهور المسلمين ؛ إذ قسموا أهل العالم بحسب الآراء والمذاهب إلى أهل الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، فحصروا أهل الديانات: فى المجوس ، واليهود، والنصارى

---

[30]) دراز : صـ ٣٨ - ٣٩ ٠

والمسلمين ، وأهل الأهواء والنحل : فى الفلاسفة ، والدهريين ، والصابئة ، وعبدة الكواكب ، والأوثان ، والبراهمة ، ومن شابهم فى العقائد .

ويستدل من هذا ، أن أهل الأهواء ، والنحل يقابلون أهل الدين والملة تقابل التضاد ، ولهذا شاع لفظ " الملل والنحل " بين علماء تاريخ الأديان فى المجتمع الإسلامى ، وفُهِم منه إطلاق لفظ " الملة " على عقيدة من له كتاب سماوى ، أو شبه كتاب ، ولفظ " النحلة " على الدهريين وأشباههم .

وهو اصطلاح – فى استعمال الكلمتين – ليس صحيحاً ؛ إذ جاء فى القرآن الكريم إطلاق لفظ " الملة " على المؤمنين بالله ، وعلى الدهريين أيضاً ، يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧ – ٣٨]

أما لفظ النحلة فلم يرد فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة ، فى قوله تعالى :

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤]

وفسره بعضهم بـ " ديانة " ، كما تقول : فلان ينتحل كذا وكذا ، أى يدين به. وقيل نحلة ، أى ديناً وتديناً ، فهى على هذا التفسير مرادفة لكلمة " دين " التى تطلق على كل عقيدة ، سواء كانت صحيحة أم باطلة .

كذلك تحدث ابن حزم فى كتابه " الفصل " عن ملة الحق ، ونحلة الحق ، مما يوحى بأن الملة والنحلة تطلقان – فى رأيه – على ماهو حق ، وما هو باطل ، مثلهما فى ذلك مثل كلمة " دين " ، فهو يقول : " قد أكملنا – والحمد لله كثيرا – الكلام على الملل المخالفة لدين الإسلام ، الذى هو دين الله تعالى على عباده ، الذى لادين له فى الأرض إلى يوم القيامة ... ثم على صحة النبوات ، ثم على صحة نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، وأن ملته هى الحق ، وكل ملة سواها باطل ، وأنه آخر الأنبياء ، وملته آخر الملل ، فلنبدأ الآن بعون الله وتأييده فى ذكر نحل المسلمين ، وافتراقهم فيها ، وبيان الحق فى كلٍّ ، وبالله نستعين "[31]

---

[31] الفصل : ١٠٥

ثم يقول فى الصفحة التالية مؤكدا هذا المعنى : " إذ قد أكملنا بعون الله الكلام فى الملل، فلنبدأ بعون الله عز وجل فى ذكر نحل أهل الإسلام ، وافتراقهم فيها ، وإيراد ماشغب به من شغب منهم فيما غلط فيه من نحلته ، وإيراد البراهين الضرورية على إيضاح نحلة الحق من تلك النحل كما فعلنا فى الملل .... "[32]

والذى يبدو لنا من خلال هذين النصين أن الملل والأديان كلها باطلة ، إلا ملة الإسلام الذى لادين فى الأرض غيره إلى يوم القيامة ، كما أن النحل – ويقصد بها ابن حزم :الفِرَق – منها ماهو حق ، ومنها ما هو باطل ، ويرى أن الحق فيها إنما هو ماذهب إليه أهل السنة ، الذين يطلق عليهم : أهل الحق ، وما عداهم ، فهو صاحب بدعة وضلالة .

ويتضح من هذا أن الكلمات الثلاث : دين ، ملة ، نحلة – فى رأى بعض المفسرين وعلماء تاريخ الأديان – مترادفة ، ويفرق بين الدين الصحيح ، والدين الباطل ، بالقيد ، فيقال : ملة صحيحة ، وملة باطلة. كما يقال : دين صحيح ، ودين محرف ، أو باطل ....

---

[32]) المصدر السابق : ١٠٦